شيْخ الكتبَة

أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري

حياته ، وآثاره ، وماكتب عنه

د. أمين سليمان سيدو

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م
النادي الأدبي بالرياض

"كأشـــواك العوسج كن في حلوقهم.. ومثل أشواك العرفج كن في عيونهم أولئك الناعقين لينالوا من لغة القرآن الكريم.. المتشدقين ليظهروا ويشتهروا بين الملأ.

قد يعرفهم الناس ويظهرون إلى السطح، ولكن كالجيفة تطفو على صفحة الماء.. تنتفخ بقبح".

أبو عبدالرحمن

"أنـا مـن الجنس البشري، وإنما تميز النية مشربي العلمي الذي تميزت بـه فقـد كنت قارئًا للأساطير، إلى أن تحولت إلى نطاق الأدب، إلـى العلـم الشرعي، إلى مذهب أبي محمد بن حزم، إلى الـتعدد فـي التخصصـات مما يحسبه البعض ثقافة عامة.. بهذا المشرب تتميز نيتي، وتتميز أيضًا بما جبل عليه شيخي أبو محمد ابـن حـزم مـن تعدد المعارف، وتميز الشخصية العلمية، وعدم الأمعية في الرأي، فأنا كل هذه الجمل التي مرت".

أبو عبدالرحمن

الجزيرة .- ع٥٤٨٨ (١٥ صفر ١٤٠٨هـ) .- ص١١

ترجمة أبي عبدالرحمن:

(أ) الاسم والشهرة.

(ب) مولده ومحل ولادته.

(ج) نسبه.

(د) والديه.

(هـ) سبب شهرته بالظاهري.

(و) الظاهريان: أبو عبدالرحمن وأبو تراب.

(ز) تعليمه.

(ح) طلب العلم ولذته.

(ط) العلوم التي برع فيها ودرسها.

(ي) غرامه بجمع الكتب.

(ك) الشخصيات التي تأثر بها.

(ل) شيوخه.

(م) أصدقاؤه.

(ن) صفاته.

(س) الوظائف التي تقلدها.

(ع) أبو عبدالرحمن واللغات الأجنبية.

(ف) أبو عبدالرحمن والشيخوخة.

(أ) الاسم والشهرة:

اسمه محمد بن عمر بن عبدالرحمن العقيل، لكنه اشتهر بأبي عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، تأسيًا بالصحابة وعلماء المسلمين رضوان الله عليهم جميعًا.. يقول أبو عبدالرحمن: "تأسيت بعبدالله بن عمر، وأحمد بن حنبل، وأبي عيسى الترمذي، وأبي جعفر ابن جرير، وأبي محمد ابن حزم، وأبي عمر ابن عبدالبر، وأبي العباس ابن تيمية... إلخ.. إلخ. رضي الله عنهم ورحمهم"(٤).

(ب) مولده ومحل ولادته:

وُلِدَ أبو عبدالرحمن عام ١٣٥٧هـ، وعُدِّلَ التاريخ في حفيظة النفوس إلى عام ١٣٦١هـ، وكان مولده في مدينة شقراء عاصمة إقليم الوشم في منطقة نجد في المملكة العربية السعودية.

(ج) نسبه:

تنحدر أسرة أبو عبدالرحمن من المدينة المنورة، وينسبون هم آل عقيل وآل جامع من الأسر النجدية إلى الخزرج، يقول أبو عبدالرحمن: "أسمع هذه الرواية تكيتًا بتواتر في صغري بشقراء، وأسمعها تحقيقًا بأسانيد صحيحة إلى المؤرخ النجدي إبراهيم بن صالح بن عيسى رحمه الله تعالى مع استفاضة لدى الأسرة"(٥).

قال أبو عبدالرحمن في حوار له مع شيخه العلامة حمد الجاسر بمقالة "الوطنية الوذحية": "بودي والله أن أكون بدويًا، أو من أصل بدوي.. ولكن الأنساب وهائب لا نهائب.. والنسب حتمية قدرية كالمولد والوفاة ووضعية الحياة

---

(٤) ملحق التراث (المدينة) .- ع١١ (١٤ جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ) .- ص٨.
(٥) الرياض .- ع٨٦٤٨ (٢٤ شعبان ١٤١٢هـ) .- ص٢١.

مــن غنى وفقر، وصحة ومرض.. إلخ.. وليس للعظامي فضل كسبي في ذلك، ولــيس علــى العصامي خُسْرٌ.. وإنما الأجور والمفاخر فيما دون الحتميات من الكسب الذاتي موهبة وبلادة، ودقة تمييز وغفلة صالحين، وإبداعًا وزيادة نسخة في البلد، وكرمًا وبخلاً، وجبنًا وشجاعة.. وسميتُه ذاتيًا؛ لأن الله جعل للعبد فيه قــدرة عمــل، وحرية اختيار وتعلم وتربية.. على أن شهادة الشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى وبعض أشياخ البلد في شقراء: أننا من الخزرج.. وهكذا وجدتُ فــي مشجرنا المحرر عام ١٢٨٥هـ بالمدينة النبوية – ولا أدري أذلك نسب أم ولاء – .. وإن يكــن ولاء فأكرم به من نعمة!.. كما أن الشيخ إبراهيم خاطب جدي بمنظومة ذكر فيها خزرجيَّته، ولا أذكر منها إلا هذين البيتين برواية الوالد رحمهم الله:

بشِّــرْ دُحَــيْمًا بأن الضبَّ قد قدما ... لــه نفــاخٌ يبتغــي بــه لحمــا
يبــيع للخزرجــيِّ ولا يماكســه ... وحيثما حطَّ يَلْقَ القرص والدسما

وكــان الشــيخ مدعــوًا عند جدي للريوق بعد طلوع الشمس؛ فمر (قبل أن يجــيء إلى جدي) بالماقفة؛ فرأى الضب – وهو رجل – قد أناخ بحمل حطب (عــدلان ووســاطة).. ودُحيم رحمه الله مغرم باللحم، ومغرم بالنزهة في البر (المكاشيت)، وأدنى مراحلهم كردة (القلتة).. وللبواريد شعر فيه ورفيقه عمر بن علــي، وقــد عزموه في كشتة؛ فذبحوا له شاته، وكان قد عمي، وخالجه الشك؛ فــتلمس الوســم فــي الأذن.. ورأى رحمه الله بطيخة يُسام عليها في المجباب بشقراء بِثُمْنِ ريال – بضم الثاء –؛ فاستكثر الثمن، وتجاوزها، وقال: والله لو إن فــيها صــفو!!.. يعنــي الدهن الذي يطفو فوق المرق كناية عن اللحم.. وكان صاحب نكات مليحة يحفظها له الجماعة".

(د) والديه:

أبــو عبدالرحمــن شــديد التأثر بوالديه رحمهما الله، فقد كان والده مربيًا وصــديقًا لــــه، يقول أبو عبدالرحمن: "صاحبت والدي في معظم أسفاره على الحمــار والجمــل والسيارة والطائرة، وكان والدًا وصديقًا في آن واحد، وأقعده المرض عشرة أعوام ووسدته التراب رحمه الله جلدًا على عظم، ولكنني لم أنس فادحــة فقــده ولن أنساها ما حييت.. وفدحت بوفاة أمي وسني صغير جدًا عام ١٣٧٢هـ فكان حزني أخف"(٦).

(هـ) سبب شهرته بالظاهري:

أبــو عبدالرحمــن شديد الولع بأبي محمد ابن حزم الأندلسي صاحب طوق الحمامــة، والمحلــى.. وغــيرهما من المؤلفات النفيسة التي تزخر بها المكتبة الإســلامية، ولــم يجارِه في حب ابن حزم أحد في المملكة سوى أبو(٧) تراب الظاهري رحمه الله.

يقول أبو عبدالرحمن: "الظاهرية ليست موضة، ولا من باب خالف تعرف، ولا مــن بــاب التمذهــب لفرد؛ وإنما هي منهج وأصول التزمت لها بعد حرية فكرية، وقضى بها ثوابت وإيجابيات فكرية وشرعية وحسية.

ويزول العجب إذا علمتَ أن الظاهرية لا تعني جميع مضمون القضية؛ فما لا يدل عليه اللفظ بوضوح أو خفاء ليس ظاهرًا وإنما هو تقول، وما لا يدل عليه الفكر بيقين أو رجحان ليس ظاهرًا وإنما هو احتمال أو وهم أو تحكُّم"(٨).

---

(٦) تباريح التباريح/ لأبي عبدالرحمن بن عقيل الظاهري .- ط١ .- الرياض: دار الصحوة، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م .- ص١٢٦-١٢٧.

(٧) رفــع أبــو هنا على الحكاية أبلغ من جره بالإضافة؛ لأن الحكاية نقل للمعهود والعرف العام.

(٨) تباريح التباريح/ لأبي عبدالرحمن... .- ص١٣٠-١٣١.

(و) الظاهريان: أبو عبدالرحمن وأبو تراب:

أبــو عبدالرحمــن لــه مساهمات كثيرة في الفقه الظاهري بخلاف أبو تراب؛ فليس له مساهمات فكرية منشورة في هذا الإطار.. يقول أبو عبدالرحمن: "الظاهرية قديمــة؛ فهي موجودة من عهد الصحابة رضي الله عنهم.. لكن في هذا البلد الشيخ أبــو تراب أكبر مني سنًّا، ويعشق ابن حزم منذ الصغر، وتكنّى بالظاهري قبلي بما ينيف على عشرين عامًا، ولكنني ربما كنت أحرص منه على جمع تراث ابن حزم.

فقــد حرصــت علــى حصر مؤلفات ابن حزم المفقودة، والموجودة وهي مطبوعة، والموجودة وهي مخطوطة؛ فكل كتبه الخطية صورتها وعممت النفع بهــا، ووزعــتها على من يعشق فن ابن حزم، وساهمت بالكتابة عن الظاهرية تأريخًا وتأصيلاً.. أما أبو تراب فلا أعرف له مساهمة في الفقه الظاهري، لأنه ابتلعته اللغة، وابتلعه علم الرجال"(٩).

(ز) تعليمه:

ذهبــت معظــم طفولة أبي عبدالرحمن في الكتاتيب عند الشيخ عبدالعزيز ابن حنطــي رحمه الله، على الرغم من فتح المدرسة الحكومية آنذاك، ولم يلتحق بها إلا على كبر.

أنهــى دراســته في المعهد العلمي وحصل على شهادتها وتعادل الثانوي، والــتحق بعدئــذ بكلية الشريعة منتظمًا وحصل على شهادة الليسانس، ثم التحق بــالمعهد العالي للقضاء وحصل على شهادته، وتعادل درجة الماجستير، وكانت أطروحــته بعــنوان: "تفســير آيــات الأحكــام في سورة الطلاق". يقول أبو عبدالرحمن: "وقد أبقيتها عندي تبركًا ولا أفكر في طبعها"(١٠).

---

(٩) الشرق الأوسط .- ع٥٥٨٩ (٨ آذار ١٩٩٤م).
(١٠) الرياض .- ع٨٦٤٨ (٢٤ شعبان ١٤١٢هـ) .- ص٢١.

وعزف عن مواصلة مرحلة الدكتوراه بعد أن بذل حسن آل الشيخ رحمه الله وزير التعليم العالي وقتئذٍ جهوده حتى قُبل في التسجيل لشهادة الدكتوراه بجامعة الأزهر.. يقول أبو عبدالرحمن "ولما حصل ما أريد هجرت الدكتوراه بحريتي، وكـدت أقتنع بأن الرسالة الخاضعة لتوجيه أي مشرف ولمخطط صناعي ليست من العلم في شيء"(١١).

(ح) طلب العلم ولذته:

كـرس أبو عبدالرحمن حياته للعلم والقراءة والتأليف دون ملل، وقلما تجده جالسًا في مجلسه العامر، أو في مكتبته الخاصة، أو في خيمته التي يجتمع فيها أحـيانًا بأصدقائه داخل أسوار بيته دون أن يكون بجانبه كراتين من الكتب، أو حزمًا من الأوراق، وفي لذة العلم يقول أبو عبدالرحمن: "لا أحصي ذلك، ولكنني أذكـر بعض المظاهر: فمن ذلك أن يكون الكتاب عزيزًا إما طبعة قديمة نادرة، وإما مخطوطة لا تجتلب نسختها أو صورتها إلا بشق الأنفس.

ومـن ذلـك أن يكـون طالب العلم قليل ذات اليد يشتري الكتاب من قوت الرقبة، ويبذل الدَّين فيه"(١٢).

فهو موهبة كبيرة، وصاحب فكر خصب، وذكاء متقد.

(ط) العلوم التي برع فيها ودرسها:

أبـو عبدالرحمـن عـالم موسـوعي كبـير، فهو فقيه، ومفسر، ومؤرخ، وجغرافـي، وأديب، وناقد، وشاعر، وقاص، وصحفي، وعالم اجتماع، ولغوي، ومحقق، ومفهرس، وفيلسوف، وكاتب.. إلخ.

---

(١١) ملحق التراث (المدينة) ع١١ (١٤ رجب ١٤٠٦هـ) .- ص٨.
(١٢) تباريح التباريح/ لأبي عبدالرحمن... .- ص٢٨-٢٩.

ولـــدى أبي عبدالرحمن مبدأ يذكره في كتاباته، وأحاديثه بأن الإنسان مهما اســـتكثر من القراءة والمطالعة والتثقيف والتخصص في فن واحد أو الجمع بين عدة تخصصات، فإنه سيظل عالمًا فيما علم، جاهلاً فيما جهل.

يقـــول أبـــو عبدالرحمـــن: "أكتب في أكثر من مجال، ولكن يجمع بين تلك المجالات أنها علوم تعتمد على القراءة والفكر والمعايشة في البيئة.

فالفقـــه وعلومـــه، وكافـــة علوم الشريعة، والفلسفة والمنطق وعلم الكلام، واللغـــة، والـــتاريخ والنسب.. إلخ. كلها علوم تعمر بها المنتديات ويصغي لها الجمهور. وهذا معنى كونها معايشة.

ولست أجدني دائمًا أميل إلى مجال بعينه، ولكنني في مدة أميل إلى التاريخ، وفي أخرى أميل إلى اللغة وهكذا.

والعالم الكبير شاهده من صدره لا من كتابه. وشاهده من صدره ليس قولاً يحفظه، ولكنه شيء حققه واجتهد فيه وعلل ودلل ورجح، فشاهده من صدره لا من كتابه.

والعـــالم الكبـــير لا يكون عالمًا في باب أو مسائل وإنما يكون متدربًا على جميع مسائل العلم الذي يعالجه، محققًا الاجتهاد في كل شوارده.

وهذا معنى أمنيتي في الصغر أن أكون أحد العلماء الكبار.

وأنـــا الآن عالم في مسيئلات جاهل في مسائل.. وكل طالب علم عالم فيما علم جاهل فيما جهل"(١٣).

(ي) غرامه بجمع الكتب:

أبـــو عبدالرحمـــن عاشق للكتاب مغرم به، شديد المحبة للعلم قراءة وبحثًا وتأليفًا ونشـــرًا، يقول: "أذكر أنني اشتريت من حنيشل رحمه الله مدونة الإمام مالك أربعة أجزاء وبهامشها مقدمات ابن رشد بخمسين ريالاً وثلاث مئة ريال.

---

(١٣) تباريح التباريح/ لأبي عبدالرحمن بن عقيل الظاهري... .- ص١٢٩-١٣٠.

وكـــان ذلك يساوي راتب شهرين وأنا طالب بالمعهد العلمي، وكانت القيمة الشرائية لهذا المبلغ تعدل يومها القيمة الشرائية الآن لخمسة وثلاثين ألف ريال.

وكنت أذهب إلى حنيشل أشتري منه في الذمة إلى مبلغ محدد ثلاث مئة ريال تارة، وخمس مئة ريال تارة، ثم أنقده يدًا بيد إلى أن أسدد له الدين السابق.

وكان لي أصدقاء من المشايخ منهم من يُهدي علي، ومنهم من يبدلني كتابًا بكتاب، ومنهم من يبيعني نقدًا ونسيئة.

وقـــد أرهقـــت ذمتـــي الديون؛ إذ كنت فيما مضى أسدد دينًا بدين في سبيل الحصول على الكتاب.

يدفعنـــي حـــب العلم إلى شراء الكتاب بأغلى الأثمان، وفي الذمة في أحيان كثيرة.. وتدفعني الحاجة إلى بيعها بأوكس الأثمان.

ولا يـــزال الأسف يأكل قلبي على طبعات نفيسة بعتها خرصًا وعجزت عن الحصول عليها مرة ثانية بعد تيسر الحال"(١٤).

(ك) الشخصيات التي تأثر بها:

هناك شخصيات كثيرة تأثر بهم أبو عبدالرحمن يذكر منهم ابن حزم، وابن فـــارس، وابـــن عبدالـــبر ذا التصنيفات المليحة، ووالده عمر بقسوته ورحمته وفطرته، وزكي مبارك، وإبراهيم ناجي.. وغيرهم كثيرون.

(ل) شيوخه:

ورد أســـماء بعضـــهم فـــي مؤلفات أبي عبدالرحمن، منهم: عبدالعزيز ابن حنطـــي، وعبدالرزاق عفيفي، وصادق صديق، وعبدالرحمن السالم، ومحمد بن عبدالرحمـــن الداوود، وعبدالله بن عبدالعزيز السالم، وعبدالله بن حميد، ومحمد عبدالوهاب البحيري، وصالح بن غصون.

---

(١٤) تباريح التباريح/ لأبي عبدالرحمن ... .- ص٢٩-٣٢.

(م) أصدقاؤه:

أبـــو عبدالرحمن شخصية محببة تنفذ إلى قلوب الآخرين بكل محبة وتقدير واحـــترام.. ومـــع هذا لم تحفل حياته مرحلة طفولته بصداقات لأحد.. يقول أبو عبدالرحمن: "أما أترابي من الشباب فأطفال لهو ولعب وغناء في الأنقاء، وكانوا يســخرون مـــن تعلقـــي بالكتاب.. ولم أجد لي في أترابي أسوة، وإنما عهدت أشخاصـــا أكبر مني يجلسون في المكتبة ويتعاملون مع المجلة والكتاب؛ لهذا لم تحفـــل حياتي وقت الصغر بصداقة لأحد أترابي أعتز بها. ولما رأيت النور في مدينة الرياض بعد عقدين من الزمن انخرطت في صداقات علمية، فأدبية، ففنية، فصحفية"(١٥).

وأخلص أصدقائه بشهادة أبي عبدالرحمن وبما أعرف عنه من مواقف تجاه أبي عبدالرحمن أمانة ووفاءً وصدقًا هو الدكتور يحيى محمود بن جنيد، لكنني لا أســتطيع أن أبوح بكل ما أعرفه من معلومات ومواقف لأبي حيدر مع صديقه أبي عبدالرحمن، على الرغم من أن الذاكرة تختزن الكثير من المواقف، فمواقف الدكـــتور يحـــيى مواقف رجل صادق صدوق وفيٌّ للصداقة بكل ما تحمله من معنىً، قلّما تجد نظيرًا له في هذا العصر.

(ن) صفاته:

أبـــو عبدالرحمـــن صـــاحب موهـــبة مميزة في تحصيل العلوم والمعارف واكتنازها، ويعود ذلك إلى ما منحه الله سبحانه وتعالى من قوة في الذاكرة، وقوة فـــي الإرادة.. وهو صاحب خلق قويم، أمين، حليم، شهم، لطيف، رقيق، خفيف الروح، سمح النفس، وسيع الصدر، نبيل ووفي مع شيوخه وأصدقائه وأصحابه، قوي الشخصية لا يتردد قيد أنملة في قول الحق.

مجالســـه دائمًا عامرة بالدرس وتحصيل العلوم والمعارف، لا يمل الإنسان مـــن حديثه، ويخترق أعماق الآخرين ببساطته، وتواضعه، وخفة دمه، ويجذب

---

(١٥) تباريح التباريح/ لأبي عبدالرحمن... .- ص٣٢-٣٣.

قلوبهم إليه.. كريم بطبعه، حاتميٌ بابه مفتوح وبيته عامر، أذكر أن أحدهم كتب ذات مرة في إحدى الدوريات المحلية قائلاً: "لم أصادف أحدًا قط في حياتي أكرم وأنبل من أبي عبدالرحمن".

وخلاصة القول أن أبا عبدالرحمن جمع بين جمال الأخلاق، وجمال الأفعال. وكسب احترام الآخرين وودهم وثقتهم دون أن يجامل أحدًا على حساب الحق.

(س) الوظائف التي تقلدها:

عمـــل موظفًا بإمارة المنطقة الشرقية عام ١٣٨١هـــ، ثم بديوان الموظفين (وزارة الخدمة المدنية حاليًا)، ثم برئاسة تعليم البنات، ثم بوزارة الشؤون البلدية والقروية مستشارًا شرعيًا، فمديرًا عامًا للإدارة القانونية.

ثـــم عمل مديرًا للشؤون الثقافية بالجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، ورئيسًا للنادي الأدبي بالرياض.

وعضـــوًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، ثم رئيسًا لتحرير مجلة النوباد، ثم رئيسًا لتحرير مجلة الدرعية التي أسسها، وهو صاحب امتيازها.

شارك في التدريس بكلية التربية في جامعة الملك سعود، ومعهد الإدارة العامة.

(ع) أبو عبدالرحمن واللغات الأجنبية:

أبو عبدالرحمن لا يتقن من اللغات سوى لغته الأم، وهي اللغة العربية، وله رؤية في تعلم لغة الخواجات (اللغات الحية)، يقول: "اللهم إني أشكو إليك عجز حيلتي في معرفة اللغات الحية لأقرأ أفكار الأمم الراقية وآدابها بلغة أهلها.. ولا أرى أن هذا العجز الذي أشعر به دائمًا سيكون حافزًا إلى التعلم.

وقـــد رأى بعـــض الفضلاء حيرتي بين شعور بالعجز وطموح إلى الكمال ومنهم الدكتور يحيى ساعاتي فتعطفوا بأن يعلموني رطانة الأعلاج.

ولكن يحول بيني وبين قبول مكرماتهم قناعتان كوَّنتهما:

أولاهما: أنه لو فرض أن تفرغي سنة كاملة للغة الإنجليزية يؤهلني للقراءة والترجمة: فإن هذه المدة كثيرة عليَّ ولا أستطيع الانقطاع فيها إلا عن الرطانة، لأنني مشدود بما أنا بصدده قراءة أو تأليفًا أو تحقيقًا أو مغاداة لقراء الجرائد.

والناس يعلمون أن من تبجح في العقد الخامس يرتعش على كل وقته ويحافظ عليه أكثر وأكثر من ابن العقد الثالث وإن كان الأخير أشد حيوية وتوهجًا.

وأخراهما: أنه لو فرض أنني أتقنت الإنجليزية في سنة واحدة، فإن هذا لن يغنيني عن مطالعة الفكر والأدب والفن الفرنسي والألماني والإيطالي والروسي والتركي والفارسي.. إلخ.. فأنّى لي الإحاطة بلغات العالم لو عمرت عمر لبد؟!.

وإذن فقراءة الكتب المترجمة عن اللغات ستظل حاجتي الضرورية ما حييت"(١٦).

(ف) أبو عبدالرحمن والشيخوخة:

أحب أبو عبدالرحمن الشيخوخة، لأنه نشأ بصحبة الشيوخ، وتمنى لو ظل دائمًا شيخًا، يقول: "أحب الشيخوخة، وأولادي يقولون جاء الشايب خرج الشايب، فأطير لذلك فرحًا.

أحب أن أظل دائمًا شيخًا بشرط أن لا أدب دبيبًا.

لا أدري هل أنا شختُ فعلاً ، أم أن ذاكرتي تتميز بالحيوية والفضول؟!

أحببت الشيخوخة لأنني منذ نشأت بصحبة الشيوخ بتحجير والدي رحمه الله. وجمهرة أصدقائي اليوم من الشيوخ الأموات أناجي مؤلفاتهم وسير أخبارهم"(١٧).

متعنا الله بصحة أبي عبدالرحمن وعمره.

---

(١٦) تباريح التباريح/ لأبي عبدالرحمن... .- ص١٢٤-١٢٥.

(١٧) تباريح التباريح/ لأبي عبدالرحمن... .- ص١٢٣-١٢٤.